ظاهرة المهجور اللفظي في العربية
ونفوذ السياق الاجتماعي الديني

ياسر عبدالله سرحان

الباحث المساعد بمجمع اللغة العربية بالقاهرة

الأستاذ المساعد بمعهد الإدارة العامة بالرياض

الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على النبي الأمي الذي أرسله بلسان عربي مبين وصل اللهم على سائر النبيين وسلم تسليما كثيراً.

وبعد، ففي حقل الدراسات اللغوية الحديثة لا غنى عن البحث في ماضي العربية لكشف قدرتها على التجديد، وسبر مشكلاتها المعاصرة بإمعان النظر في التغيرات الاجتماعية واللسانية الطارئة لاسيما تلك التغيرات التي أحدثها الإسلام في المجتمع العربي الجاهلي. ولم يكتب للغةٍ أن يُعتنى بها، مثلما اعتنى أهل العربية بالعربية وحرصوا عليها. وإن الرصيد الحضاري الذي منحه القرآن للغة العربية ليقف وراء ذلك الحرص. وقد اعتقد قوم من علماء العربية التوقيف في اللغة وأن لتلك اللغة خاصةً شرفاً كبيراً يجب صونه(١). وإذا كانت الدراسات اللغوية الحديثة تجعل اللغة في قمة الأشياء المكتسبة(٢) التي حصل عليها الإنسان بكفاحه فإنها لا تلغي في الوقت نفسه تدخل علم الله وقدرته في إيجاد اللغة. فاللغة أولاً وآخراً من خلق الله: ﴿ومن آياتِه خلقُ السَّمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم﴾ (سورة الروم/ الآية ٢٢) وهذا التفسير في عدالته وقوته يقف وراءه كذلك النص القرآني ويبرز العامل الديني خلفه بروزاً واضحاً.

وإن استقرار أي جماعة جديدة قائم على عدة ركائز من أهمها المحافظة على سياج لغوي جديد ينبئ عن عقيدة تلك الجماعة وفكرها ورؤيتها للعالم، ويتخذ أفرادها سبلاً عديدة لإقرار ذلك السياج، وجاء الإسلام فنهى عن عاداتٍ وغيَّر أخرى أو قوَّمها وأمر بشمائل لم يكن العرب يعرفون عن مفاهيمها شيئاً ألبتة، وأوصى بأفعال وأقوال أوجب على المجتمع المسلم الجديد تمثلها ومعايشتها. لقد

(١) انظر في قضية نشأة اللغة: الخصائص لابن جني ١/ ٤٤، ٤٦، ٤٧. والصاحبي لابن فارس، ص٣٦، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/ ٢٠، ٢٧. وتناولها الأصوليون بعنوان مبدأ اللغات أو الواضع، انظر: روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ص١٦٨، وإرشاد الفحول للشوكاني ١/ ٤١.

(٢) العربية لغة العلوم والتقنية، د. عبد الصبور شاهين، ص ٣٨.

مارس الإسلام نفوذاً اجتماعياً لغوياً اكتسب مسحة دينية عظيمة، ولا يخلو هذا النفوذ أحياناً من قداسة ملأت نفس العربي وجعلته ينطلق في آفاق جديدة من الفكر بعيداً عن المشخصات التي كان يحيا ويأنس بها.

وقد جعل ماريوباي للنفوذ الديني في العربية نصيباً من حديثه، والنفوذ الديني هو بإيجاز ارتباط المتكلمين بعقيدة تقترض ألفاظها من اللغة المقدسة. وخص ماريوباي رجال الدين بشيء من المحافظة على تلك اللغة المتكلَّمة(١).

وإذا طرحنا تأصيل المنظور الديني للغة للمناقشة، فإننا يجب ألا نغفل عن قضية أخرى، وهي الحساسية المفرطة في أي نظام لما يقع جديداً في المجتمع، وقد حقق الإسلام للمجتمع العربي أهدافاً اجتماعية عالية، أو كما قيل صنع مفاجأة اجتماعية خلقت مشكلة للغة(٢). هذه المشكلة فطن لها ابن فارس فقال: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونُسخت ديانات وأُبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أُخَر.."(٣).

وإن ما يعنينا في قول ابن فارس هو إبطال الإسلام لأشياء أو نسخها لها، فهذه الدراسة في صميم البحث اللغوي التاريخي التي لا ترى حرجاً في التعريج على سلوكيات وعادات المجتمع الدينية وأثر ذلك في اللغة ونشوء ما يسمى بالمهجور

(١) أسس علم اللغة لماريوباي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، ص ٢٠٨، وفكرة النفوذ الديني في اللغة فكرة واضحة وقضية قوية، لكن الإسلام لا يعترف بمصطلح رجال الدين، إذ المسلمون كلهم سواء في وجوب معرفة دينهم وحدوده وتمثله تمثلاً حقيقياً: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"، "بلغوا عني ولو آية .. " ... إلخ. وهذا أدعى إلى بروز العامل الديني في لغة المجتمع المسلم في عموم طوائفه ومستوياته الاجتماعية.

(٢) مستويات العربية المعاصرة، د.السعيد بدوي ص٢٢.

(٣) الصاحبي لابن فارس تحقيق: السيد صقر ص٧٨.

اللفظي أو الألفاظ المنقرضة. وليس ثمة شك في أن إهمال الظاهرة الاجتماعية وإسقاطها من المجتمع يقود إلى إهمال القيمة الوظيفية لمفرداتها المعبرة عنها(١). وهذا التعريج على العوامل الدينية والاجتماعية أساس من أسس علم اللغة الحديث؛ فتمازج الاختصاصات(٢) قاعدة وليدة التضافر المعرفي وتكامل العلوم وتآزرها. كذا عُدَّ تجاهل علم اللغة للمجتمع شيئاً خطيراً وغير محمود في حقل الدراسات اللغوية(٣).

واهتمام اللغوي ببنية اللغة langstructure واهتمام عالم الاجتماع بالسياقات الاجتماعية لا يعني سوى إكمال كلٍّ منهما للآخر.

ظاهرة المهجور اللفظي (المصطلح والمفهوم):

لا يصح أن نطلق وصف "ظاهرة" على أمر يفتقر في خصائصه ومكوناته إلى أن يُعد من قبيل الظواهر، سواء كانت تلك الظاهرة قوية الوضوح والمعالم أم خافتة. والظواهر اللغوية مثلها مثل الظواهر الاجتماعية في درسها ومباحثاتها، فالتلقائية واحترام دلالة مفردات الظاهرة وتركيباتها وعناصرها خصيصة من تلك الخصائص، كذلك العمومية والانتشار الذي يتفاوت من مجتمع إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى، ثم تأتي صفة الإلزامية والجبرية فيتواطأ المجتمع عليها دون أن يعلن أحد أفراده رفضه لها(٤).

والمهجور اللفظي مصطلح تتوارد عليه طائفة مصطلحات أخرى، ترادفه أو تقاربه وقد تختلط به في إثبات تلك المعاني التي نتحدث عنها. وقد تناول الإمام السيوطي مصطلحات: الضعيف، والمنكر، والمتروك. ففرق بينها وضرب لها

(١) انظر: علم الاجتماع اللغوي د. السيد علي شتا ص٥٦.

(٢) مباحث تأسيسة في اللسانيات،د. عبد السلام المسدي ص ١٢.

(٣) انظر: علم اللغة الاجتماعي . روك هدسون ترجمة د.محمود عياد ص١٥.

(٤) انظر: علم الاجتماع اللغوي ص ٥٠ ص٥٦.

الأمثلة، فالضعيف هو ما انحط عن درجة الفصيح، والمنكر أضعف منه وأقل استعمالاً، بحيث أنكره بعض أئمة اللغة ولم يعرفه، والمتروك ما كان قديماً من اللغات ثم ترك واستعمل غيره(١). وهذه التعريفات تجعل الفصيح مصطلحاً يقابل الضعيف والمنكر والمتروك.

وثمة شروط وضعوها عند حديثهم عن الفصيح، ويحسن أن نسميها مظاهر الفصيح وليست شروط الفصيح؛ إذ الفصاحة تتفاوت من لفظ إلى آخر ومن عبارة إلى أخرى، والشروط تعني أن تخلف أحدها يجعل اللفظ غير فصيح، أما المظاهر فقد يتخلف بعضها عن ملابسته اللفظ دون أن يفتقد اللفظ سمة الفصاحة. وأهم تلك المظاهر كثرة الاستعمال، وخلوص اللفظ من تنافر الحروف وأن تتصف تلك الحروف بقرب التأليف فيما بينها(٢)، فقد أهمل الخليل لفظة الهعخع وأنكرها لتنافر حروفها. وكذلك خلوص اللفظ من الغرابة على أن تلك الغرابة ليست مطلقة وإلا فقد عد عامة الناس كثيراً من لغة العرب غريباً(٣). كذلك يجب أن يبرأ اللفظ الفصيح من مخالفة القياس اللغوي وزاد بعضهم خلوصه من الكراهة في السمع، وخلوصه من الابتذال، إلا أن ذلك الابتذال مرتبط بالاستعمال في زمان دون زمان وليس وصفاً ذاتياً ولا عرضاً لازماً(٤)، وانتباه الإمام السيوطي لتلك الفائدة جد مهم لأن تفاوت الأماكن وتفاوت المجتمعات يؤثر في استعمال اللفظ ويتحكم فيه تحكماً واضحاً، فإما أن يستعمل وإما أن يهمل بحسب الزمان والمكان، وقد كان البر أفصح من القمح والحنطة. إلى جانب تلك المظاهر أجمع الناس على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن.

(١) انظر: المزهر في علوم اللغة ١ / ٢١٤ (النوع العاشر).

(٢) السابق ١ / ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩.

(٣) دعا البعض إلى الاقتصار على لغة القرآن والسنة المتواترة وهجر جل ما نقل عن العرب، وهذا دعوة فيها كثير من المزالق.

(٤) السابق ١ / ٢١٢.

هذا عن مصطلح الفصيح في مقابل الضعيف والمنكر والمتروك. وثمة تقسيم آخر للفظ يتمثل في الاستعمال وعدمه فهناك لفظ يستعمل وآخر غير مستعمل، فالأول هو ما يوضع على معناه ودلالته، والثاني – وسمَّوه غير المفيد – ضربان: أحدهما ما قلبت حروفه نحو قولك "ديز" مكان قولك: "زيد". فهذه الأصوات "مهملة" غير مفيدة شيئاً، والضرب الآخر الحروف المنظومة المتكلم بها على وجه لا يفيد ولا يفهم نحو هُجْر ـ خلط ـ المُبَرْسَمين(١).

ومن ثم تكون دائرة الاستعمال هي الدائرة الأم، والفصيح هو أعلى درجات اللفظ المستعمل المفيد في مقابل الضعيف والمنكر والمتروك والمهمل ونحو ذلك من مصطلحات، فلا تخرج دائرة الفصاحة عن دائرة الاستعمال والإفادة. والفصاحة لا تخرج في معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي وهو الظهور، وهي خاصة بالألفاظ في حين أن البلاغة تكون وصفاً للفظ مع المعنى(٢). أما دائرة الضعيف والمنكر والمتروك والمهمل فهي دوائر تتداخل فيما بينها، تنزع دائماً ـ على تفاوت فيما بينها ـ إلى عدم الاستعمال والهجر.

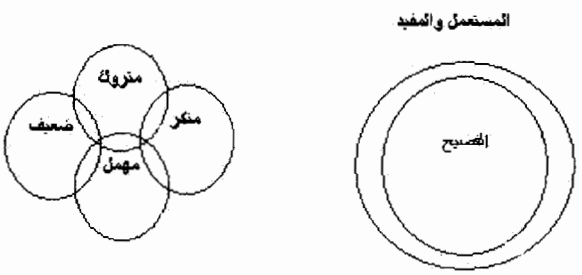

وللدلالات الكثيرة التي تعتري مصطلح غير المستعمل ارتأينا استخدام مصطلح

(١) التقريب والإرشاد الصغير للقاضي أبو بكر الباقلاني تحقيق د.عبد الحميد بن علي أبو زيد ١ / ٣٣٧. وانظر في الكلام عن مراتب المستعمل والمهمل وأبنيته المزهر في علوم اللغة ١ / ٧٤، ٢٤٠.

(٢) انظر الكلام عن مصطلح الفصاحة في معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د. أحمد مطلوب ص٥٤٥ : ص٥٤٩.

المهجور؛ لدخول كل المصطلحات السابقة فيه على اختلاف قوة العدول عن اللفظ المهجور. وما يعنينا بقوة هو الألفاظ التي كانت حية جزلة في جزيرة العرب، تمثَّل في كثير منها شروط الفصاحة أو مظاهرها، بيد أن المخالفة الاجتماعية التي تعقَّبها الإسلام هي التي أودت بحياة تلك الألفاظ وعملت على وأدها. كذلك لم نشأ استخدام مصطلح المنقرض لما يحمله من دلالة الزوال وعدم البقاء(١).

كما لا يعنينا ما عبر عنه النحاة أحياناً في حديثهم عن المتروك بأنه الممات أو المستغنَى عنه، وظاهرة الاستغناء ظاهرة ملحوظة في اللغة قال عنها سيبويه: "اعلم أنهم .. يستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً "(٢).

إننا نريد أن نتعرف الأثر الثقافي في المفردات العربية وما أحدثه الإسلام في المجتمع العربي من غربة نفسية لبعض الألفاظ، فقد حدثت هجرة لألفاظ وعبارات، اختلفت قوة تلك الهجرة من لفظ إلى آخر، ومن شأن الحياة أنها تعمل على تغير المفردات أو القضاء على بعضها. "ويرى ما لينوفسكي أن المفردات اللغوية في أي مجتمع من المجتمعات تعتبر المرآة الصادقة التي تعكس صورة واضحة لما عليه أفراد هذا المجتمع من ثقافة ونظام وعادات وتقاليد واتجاهات" (٣). كما أن المعجم حينما

(١) يقال: انقرض القوم أي درجوا ولم يبق منهم أحد .(لسان العرب: ق رض ٧/٢١٨).

(٢) الكتاب لسيبويه ١/٢٥، وانظر باب الاستغناء في الخصائص لابن جني ١/٢٦٦. وانظر تفاصيل مصطلح الممات وبعض المصطلحات الأخرى: موت الألفاظ في العربية، د. عبدالرزاق بن فراج الصاعدي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٠٧- السنة ٢٩- ١٤١٨/١٤١٩هـ، فقد ذكر تسعة عشر مصطلحًا، ثمانية منها يتعلق بالممات وبعضه حديث وبعضه قديم، وبعضه مشهور نحو "الممات" وبعضه غير مشهور نحو "العُقْمِيّ" وكلام العلماء عنه يوحي بأنه محض لغةٍ وليس مصطلحًا تعاهده الناس وإلا فإن هذا كثير في بطون المعجمات. وأحد عشر منها يتعلق بفصاحة الكلمة وجلها مصطلحات مترادفة في استعمال العلماء نحو الغريب والحوشي والنادر ونحو الرديء والمذموم والقبيح.. وقد اعتمدت في هذا على نسخة إلكترونية منشورة بموقع الجامعة الإسلامية:

http://wwwiuedusa/magazine/107/8htm

(٣) علم النفس اللغوي د.نوال محمد عطية ص٢٣.

يسرد الكلمات بدلالالتها المختلفة إنما يتحدث في الأصل عن دلالة اجتماعية ثم يكون التعرض لمسائل الصرف والنحو، فالدلالة الاجتماعية للكلمات هي الهدف الأساسي في كل كلام، وبها عني المعجميون القدماء والمحدثون(١).

ومن فضول الكلام لزيادة البيان أقول إن العربية تخلصت ـ مثل أي لغة يصيبها التطور ـ من كلمات سماها النحاة الممات نحو ماضي "يدع والاستغناء عنه بـ "ترك" وكذا استغنت في فترة من فترات تطورها ونضجها عن الفعل الثلاثي من "افتقر" الدال عليه الوصف "فقير"(٢)، فلم تستعمل "فقر". لكن العربية في فترة قصيرة من حياتها قضت على ألفاظ كثيرة كان أهل الجاهلية يحيون بها، فأشبه هذا اندراس الأماكن وعفاءها وإن بقيت الأطلال تذكر بها وتصنع لها تاريخاً.

إن ألفاظاً مثل: (البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي) حملت دلالات عاطفية مؤثرة لدى الجاهليين، كانت تبعث في نفوسهم الإذعان والتوقير سرعان ما انقلب هذا التوقير إلى إيحاء نفسي عظيم السوء، فالكلمات هي نفسها وفي حالتيها كانت لها دلالات عاطفية مؤثرة(٣). فغدت الدلالة المحببة إلى نفس الجاهلي مبعث قبح حاول جيل الصحابة نسيانه أو كانت مثار سخرية في حياتهم ومجالسهم.

وهذه الظاهرة ـ على أهميتها ـ لم يعمل اللغويون القدماء على حصرها وذكرها؛ لأنهم لم ينتهوا إلى صنع ما يسمى بالمعجم التاريخي، ومن ثم فالصعوبة حاصلة في جمع تلك الألفاظ أو حصر حقولها الدلالية ومراجعتها جملة وتفصيلاً بعد أن ثبت أنها تتشعب في حياة العرب الجاهليين. وإننا لا يمكن أن ننكر ما بذله علماء اللغة العربية في دراسة الصرف والنحو ومسائل العربية المدونة في الكتب، لكن العناية بالمفردات(*) والكشف عن تطورها لم يكن كافياً "والسبب في هذا يرجع

(١) دلالة الألفاظ د.إبراهيم أنيس ص٥٠.

(٢) المنصف لابن جني ١/١٦.

(٣) انظر في هذا: دور الكلمة في اللغة ستيفن أولمان ترجمة د.كمال بشر ص٥٦.

(*) كذا نفتقد العناية بالتطور الحادث في تراكيب الجملة العربية المعاصرة، فلم تستوعب دراسة مفصلة ذلك التطور في مستوى الجملة العربية وملاحظته مثلاً في عصور الجاهلية وصدر الإسلام والعصور اللاحقة. ولا تغني كتب اللحن والصواب والخطأ في هذا الأمر لاحتياجه إلى جهد جماعي منظم.

إلى السؤال عن الجائز في اللغة وعدمه وقد دعاهم ذلك إلى الامتناع عن تدوين كثير من المفردات والعبارات"[١]. وظهر في حقل الدراسات اللغوية ما يسمى بالمحظور اللغوي، إذ هناك ألفاظاً يتجنب المرء استعمالها تحت تأثير مدلول مقدس حرم ذكره أو لمسه أو الاقتراب منه[٢]. ولا نذهب بعيداً عن الصحة حين نقول إنه لولا حديث القرآن عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وتبكيته للجاهليين ما كنا قد سمعنا عن تلك الألفاظ ومراجعة المفسرين لها وشرحهم لدلالاتها.

يبقى أن نقول إن هذه الظاهرة ظاهرة غير إنمائية، وهي لا تقل أهمية عن ظاهرة التوليد اللغوي. وهذا يستدعي النظر في معالجة العربية لتلك الظاهرتين معاً ودور الإسلام في ذلك.

إن الإسلام حينما أرسى عادة جديدة أو مبدأ جديداً عمل على توليد لفظ جديد له. والتوليد[٣] وخلق الكلمات الجديدة يتمثل في طرق عديدة منها: الاشتقاق، والتركيب، والاقتطاع العجزي، والتقصير، والوضع، والتغيير الوظيفي، والاقتراض[٤].

ولقد أشار ماريوباي إلى الفرق بين التوليد والهجر بقوله: "هناك ميل طبيعي لمفردات اللغة نحو النمو والتكاثر... وهناك إلى جانب ذلك - وإن كان بدرجة أقل - احتمال هجر الكلمات كما يحدث حينما يختفي من الوجود شيء ما، أو معنى معين، أو فعل على وجه التحديد، فمن المحتمل أن يحدث هجر (obsblescence) للكلمة إلى أن تختفى من الوجود نهائياً، وتبقى فقط في المعاجم تحت اسم

(١) دلالة الألفاظ وتطورها د. مراد كامل ص٢٧.

(٢) السابق ص٣١.

(٣) التوليد في العربية له أشكال، وهو أوسع معنى من الاشتقاق. انظر: العربية لغة العلوم والتقنية د. عبدالصبور شاهين ٣٤٥، ٣٤٩. وانظر: أسس علم اللغة ص ١٥٥، ١٥٦، ودور الكلمة في اللغة ص ١٢٦: ١٥١.

(٤) انظر: أسس علم اللغة ص ١٥٦.

المهمل... ويمكن مع هذا للمرء أن يؤكد بمنتهى الطمأنينة أنه في مقابل كل كلمة تختفي يظهر على الأقل عشر كلمات جديدة "[1] فالظواهر الإنمائية في اللغة تغلب دوماً هذه الظاهرة.

وقد رسخ الإسلام مفاهيمه الجديدة بالحث عليها وإبرازها دائماً أمام المجتمع بالحديث عنها، فنشأت ألفاظ جديدة مثل القيامة وأسمائها، والنار وأسمائها، والجنة وأسمائها، والملائكة وأسمائهم. ولم يكن الوضوء يعني عند العرب سوى الطهارة[2]، فحث الإسلام على الوضوء بمفهومه الجديد حتى رسخ في عقل الجماعة المسلمة وفكرها. وقد يزيد اللفظ الجديد رسوخاً وثباتاً ارتباطه بحدث تاريخي يعززه الإسلام ويحتفي به مثل "عاشوراء"[3]. وفي مقابل هذا التوليد الذي أحدثه الإسلام بعث في النفس كراهيةً وبغضاً للألفاظ الشركية التي كانت نابعة من المجتمع الجاهلي الشركي الذي حاد عن ملة إبراهيم عليه السلام.

إن ثمة قائمة عريضة من المفردات العربية كان العربي الجاهلي يلوكها ويتحدث بها في صباحه ومسائه لأنها كانت جزءاً من حياته، لكن الإسلام غير من تلك العادات والتقاليد. ولعل الفرق بين اللاتينية والعربية بعد الإسلام يدعم هذا التحول اللغوي، "فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة، على أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل

(١) أسس علم اللغة ص١٥٤.

(٢) وفي خبر الملك عمرو بن هند مع الحارث بن حلزة. "وأمره ألا ينشد قصيدته إلا متوضئاً" (انظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٣٢).

(٣) قال ﷺ: «صيام عاشوراء كفارة سنة» (المسند ٥ / ٢٩٥) وقال الخطابي: "هو اسم إسلامي ولم يعرف في الجاهلية". إصلاح غلط المحدثين للخطابي. تحقيق د. حاتم الضامن ص٤٤.

الكناية بصريح القول... ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة..."(١).

لقد اكتسبت العربية حساسية مفرطة لبعض الألفاظ خشية الوقوع في بعض الإيحاءات القديمة التي حض الإسلام على تركها والقضاء عليها. وعموم مفهوم هذه الظاهرة لا ينبغي أن يحمل معنى النهي الشرعي عن شيء من المحرَّمات على أنه هجر للفظ المستعمل وإلا فإن الخنزير والخمر وفحش القول محرَّمات لم يهجرها الناس، وإنما قصدنا بالهجر هجر بعض الألفاظ والعبارات القديمة - وليس كلها - وقد يكون الهجر ظاهراً عند طائفة معينة من الناس تعمل على التزام الأحكام الشرعية وتوخي الآداب الدينية التي ندب الإسلام إليها وحث عليها الرسول ﷺ فتجد من ذلك ألفاظاً كثيرة هجرها هؤلاء وابتعدوا عنها. ولن نعدم وجود صدى لذلك في عربيتنا المعاصرة وعند طوائف عديدة من المسلمين.

أسباب نشوء ظاهرة المهجور اللفظي:

تتعدد عوامل هجر الألفاظ وتختلف، ولعل من أهمها اختفاء الشيء نفسه الذي يعبر عنه، "فأهم العوامل التي تؤدي إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه، ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها..."(٢).

وقد يختفي لفظ لصعوبة النطق به، لوجود لفظ أسهل في النطق والأداء يؤدي المعنى نفسه. لذلك ينفي الدكتور أحمد مختار عمر أن يكون للمشترك اللفظي

(١) اللغة والمجتمع د. على عبد الواحد وافي ص١٨.

(٢) السابق ص٢٨.

وحده النفوذ في اختفاء كثير من الكلمات(١).

واللغة نفسها تميل إلى التجديد، وقديماً مرت العربية بخطوتين للاستصفاء والتنقية اللغوية، أولاهما استصفاء قريش للفصحى المشتركة بين القبائل، فقد كانت القبائل تغشى ديارهم للحج ولغير ذلك من المناسبات. والثانية حينما جمعهم الإسلام على لغة مشتركة تلم شعثهم وتوحد قلوبهم على الجهاد، ومن شأن هذا التجمع أن يسقط كثيراً من الألفاظ المعبرة عن عادات وتقاليد قد تخلى أصحابها عنها حينما انتقلوا إلى بلاد الرافدين ثم ساحوا في الأرض يطلبون الفتوحات.

واللغة كذلك، دون عامل خارجي مسلط عليها، تحتاج إلى أن تتخلص من مفردات كثيرة، وذلك يتمثل مرة في البعد عن الغريب، أو الميل إلى السهولة وتجنب ما ذكر في المعجمات مبتور الشاهد أو المثال؛ فعدم وجود الشاهد أو المثال المستعمل يعني أن تكون اللفظة أو العبارة مرشحة للفناء والانقراض، وكذا إهمال كثير من المترادفات، والتخلص من الألفاظ ذات المعاني القبيحة بالتحايل عليها حتى يقضى عليها ويحل غيرها محلها.

ومن هذه السبيل ما ذكره ابن فارس تحت عنوان "أن كثيراً من كلام العرب ذهب بذهاب أهله"(٢) فقد سرد زمرة من العبارات والأساليب الإنشائية كالإغراء والاستفهام والزجر والدعاء، وكان الهجر مصير تلك الألفاظ على ما كانت عليه من استعمال بين الناس، ولم يبق عندنا إلا الرسم الذي نراه(٣).

فتلك أسباب ظاهرة جلية، وتلك هي حاجة اللغة وتغيرها الذاتي، ولكن يبقى

(١) من قضايا اللغة والنحو، د.أحمد مختار عمر ص٣١.

(٢) الصاحبي لابن فارس تحقيق السيد صقر ص٥٨.

(٣) انظر: السابق ص٦٦، والمزهر في علوم اللغة ١/٦٩. وانظر كذلك طريقة العرب في الدعاء: الخصائص لابن جني ٣/٢٣٠، ٢٣١، ٢/٢٤٠، وقد صار كل ذلك مهجوراً.

الخطاب الديني واللغة الأساسية[١] قرينين دائماً في صناعة اللغة المشتركة أو تكوين لغة الحوار، فالراجح أن القبائل العربية في العصر الجاهلي لم تلتقِ على اللغة العليا في الحياة الأدبية فحسب، بل كانت تستعملها كذلك في المجال الديني حين تفد إلى مكة في موسم الحج[٢].

وصارت الألفاظ بعد الإسلام لغويةً ودينيةً وشرعية، أما اللغوية فظاهرة، وأما الدينية فما نقلته الشريعة إلى أصل الدين كلفظ الإيمان والكفر والفسق، وأما الشرعية فالصلاة والصوم والحج والزكاة..[٣]. وفي شريحة الألفاظ اللغوية نما كثير من المفردات والتراكيب الجديدة، كما انتفى كثير منها، وكان لذلك أحكام وضوابط قبلها المسلمون عن طواعية، وهي ضوابط تؤول إلى أصول الإسلام وأحكامه وشريعته، فكما أتت الشريعة بمصطلحات جديدة نفت ألفاظاً أخرى وحرمت ألفاظاً وعبارات عديدة، وقد أشار الأصوليون في حديثهم عن مبدأ اللغات إلى هذا، يقول ابن النجار الحنبلي: " .. ويجوز تسمية الشيء بغير توقيف، ما لم يحرمه الله تعالى، فيبقى له اسمان"[٤] وذلك في شأن التسمية الوضعية أما فيما نهى عنه الشرع من ألفاظ فالأمر فيه أوضح. ونستطيع أن نعزو نفي كثير من الألفاظ أو تحريمها إلى أربعة محاور رئيسة.

الأول: الدعوة إلى التوحيد وما يستلزمه من نفي خصال الشرك بالله، فمع

(١) ورد مصطلح (الألفاظ الأساسية) في بحث بعنوان "الألفاظ الأساسية في الجرائد اليومية" نشرة بريل سنة ١٩٤٠م. انظر دلالة الألفاظ العربية وتطورها ص٢٨. كما ورد مصطلح اللغة الأساسية في بحث بعنوان "اللغة الأساسية" للدكتور فؤاد البهي السيد، مجلة مجمع اللغة العربية جزء ٢٧ ص١٢٩. ذو الحجة ١٣٩٠هـ = فبراير ١٩٧١م وكلاهما يهتم اهتماماً بالغاً بما هو مستعمل من اللغة على ألسنة الناس وفي كتاباتهم.

(٢) انظر : لغتنا والحياة د.عائشة عبد الرحمن ص٥١.

(٣) المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي ١ / ٣٣٦.

(٤) مختصر التحرير في أصول الفقه لابن النجار ص٥٩.

اختفاء الأصنام وتحطيمها في جزيرة العرب اختفت عادات وثنية وخصال شركية تنافي فطرة التوحيد. وجاهد النبي ﷺ في سبيل إقرار هذا الأصل ونفى ما سواه، وتحدث القرآن الكريم كثيراً عن عادات وخصال جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان، وكان حديثه موجعاً مؤلماً للمشركين(١).

الثاني: إقرار الأحكام الشرعية وإزالة ما يضادها من أشياء حرمها الإسلام، وهذا من شأنه أن يصنع ما يسمى بالتخلية والتحلية في تلك الأحكام، فالتخلية برزت في تغيير نظام جاهلي كان متعارفاً عليه، فحرم الإسلام أشياء ونص عليها مثل الخمر والاستقسام بالأزلام، وكذا تدخل في إزالة أنظمة مثل نظام النكاح في الجاهلية، وكذا في أحكام الحرب وأحكام البيوع(٢).

الثالث: الآسرة النبوية والقيادة الروحية، فلم يكن النبي ﷺ قائداً عادياً، ولكنه كان خاتم النبيين، صنع من جيل الصحابة ما لم يصنعه أحد في تاريخ الإنسانية. ولو ذهبنا إلى مجتمع الصحابة لوجدناهم أدرى بأفعال النبي ﷺ وأقواله وعباراته، فكانت حركاته وسكناته على مرأى دائم من أبصارهم ونبرات صوته ونغماته عالقة بأسماعهم. وذلك فيه فسحة ومجال رحب لمحاكاة النبي ﷺ لالتماس القرب من الله سبحانه وتعالى. ولا يسعنا في البحث في حقل البلاغة النبوية إلا أن نسلم بأنه ﷺ كانت له عبارات وأذكار وأوراد وأمثال ابتكرها ابتكاراً ووضعها وضعاً، وقد أثرت تلك الوضعيات في جيله وفي المسلمين جميعاً من بعده، ومن المقرر في علم اللغة أن كل شخص على حدة له خصائصه النطقية التي تميزه عن غيره، حتى من بين أعضاء أسرته القريبين، وهذه الخصائص تسمح لأصدقائه ومعارفه أن يميزوه

(١) اقرأ على سبيل المثال سورة الأنعام وتفسير الآيات من (١٣٦) إلى (١٤٠).

(٢) وفي الحديث: "ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع" (شرح صحيح مسلم جزء ٨/ ٤٢٠) يقول الإمام النووي: وفي هذا إبطال أفعال الجاهلية وبيوعها التي لم يتصل بها قبض. (السابق ٨/ ٤٣٢).

في حالة عدم رؤيته عن طريق صوته، هذه الصورة الفردية تسمى العادات الكلامية (idiolects)[1] وكان الصحابة والمسلمون في استعداد دائم لنفي كثير من قديم الجاهلية بأمر النبي ﷺ وتقبُّل الكثير مما وضعه، وتقليد كثير من العادات الكلامية عنده ﷺ. وليس أدل على ذلك مما رواه النسائي عن أبي بكرةَ عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم وهو على بعير فقال: أيُّ يوم هذا، قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فأي شهر هذا، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمِّيه سوى اسمه. قال أليس ذا الحجة؟ قلنا بلى. فأيُ بلد هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. قال: أليس بالبلدة؟ قلنا: بلى . ."[2]. ومن هذا الباب جاءت ألفاظ الآداب التي أمر بها النبي ﷺ وترك ما عداها مما قبحه الشرع أو نهى عنه.

الرابع: عموم الإيحاء الديني غير المقبول، أو ما نسميه بالتحرج الديني، وذلك أثر عام من آثار التربية الإسلامية التي تربِّي النفس على استبطان الخير، وتهذيب اللسان فلا ينطق كذلك إلا بخير، ليكون الظاهر دليلاً على الباطن، وهذا من شأنه أن يجعل المسلم على حذر وترقب دائمين مما يقع فيه من ألفاظ يتأذى منها المسلمون، أو أن يتلبسه حرج شرعي مرده إلى مخالفة قولية، فهجرت لذلك ألفاظ عديدة مبعثها هذا التحرج الديني.

إن الإسلام عمل على تغيير الوضع الجاهلي مستخدماً تلك المحاور الذاتية، فاستطاع في فترة وجيزة أن يُنسي المجتمع الجاهلي صنوفاً عديدة من الدلالات، وليس في طاقة بحث مفرد أن يقوم بتقصي المفردات والتراكيب المهجورة في عدة حقول دلالية مختلفة، فلن تسعفنا معطيات الدرس التاريخي اللغوي، كما أنه لن

(١) أسس علم اللغة ص ٦٩، ٧٠.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٢ / ٤٤٢ حديث رقم ٤٠٩٢.

تكون لدينا أحكام قطعية في القول بأن هذا اللفظ مستعمل وذلك مهجور، أو هذا مستعمل بقلة أو شبه مهجور، ولكننا يمكن أن نعزو الحقول الدلالية التي أماتها الإسلام أو أمات قطاعاً منها إلى أركان رئيسة، فهي إما أن تمسَّ أحكام الإسلام ونظمه، أو آدابه وأخلاقياته العامة التي دعا إليها. فالمجالات الدلالية التي هجرت فيها بعض الألفاظ والتراكيب كانت ترتبط بحياة العرب ارتباطاً وثيقاً. وإذا كان "الحقل الدلالي" Semantic Field أو الحقل المعجمي Lexical Field هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام"[1] فإن النفي أو الهجر الحادث لم يكن في الحقل الدلالي جميعه ولكنه حدث لبعض الألفاظ. ويمكننا تتبع بعض تلك المجالات الدلالية وبيان معاني ألفاظها المهجورة.

* السائمة:

شنع القرآن فعل الجاهليين، فقال تعالى: ﴿ما جَعَلَ اللهُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذِب وأكثرهم لا يعقلون﴾ (المائدة / الآية ١٠٣). أي ما حكم الله بذلك ولا شرع ولا أمر به[2].

وقد احتج القائلون بالتوقيف بأنه لو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم لهم، لكن وجه الذم مخالفة ذلك لما شرعه الله، لا أنهم اخترعوها اختراعاً ووضعوها وضعاً[3].

فأما عن البحيرة فقد كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بَحَروا أذنها، وشقوها، وامتنعوا عن نحرها ولا تُطرد من ماء ولا مرعى[4]. وقيل هي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها فيسيبوها فلا تركب ولا يُحمل

(١) علم الدلالة د. أحمد مختار عمر ص٧٩، وانظر تعريفين آخرين فيه للحقل الدلالي.

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للرازي جزء ١٢ ص٩٠، والكشاف للزمخشري ١ /٧١٧.

(٣) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني ١ /٤٢، ٤٣.

(٤) انظر: الأم للشافعي ٦ /١٨١، ٤ /٩، الكشاف ١ /٧١٧.

عليها[١]. وفي معناها أقوال أخرى[٢]، وكلها معانٍ وأقوال تصف ما كانت عليه العرب من أعراف مختلفة نهى عنها الإسلام وأبطلها القرآن. فعن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فصعدني النظر وصوبه، وقال: أربٌّ إبل أو غنم؟ قلت: من كل قد أتاني الله فأكثر وأطاب، فقال: ألست تنتجها وافية أعيانها وآذانها، فتجدع هذه وتقول: بحيرة .."[٣] ففي حديث النبي ﷺ للرجل عن السائمة يلومه على هذا العرف المحاد لشرع الله وعلى تلك التسمية الباطلة.

ولنا أن نسمي "البحيرة" مركز الدلالة المهجورة وإذا كانت "البحيرة" قد اختفت من حياة العرب، فقد ذهب معها ألفاظ أخرى وتراكيب ترتبط بها لغياب هذا المركز عن لغة الناس وهذه الألفاظ مثل:

- جمع بحيرة على (بُحُر) و (بحائر).

قال الشاعر في جمع البحيرة:

مُحَرَّمة لا يطعَم الناسُ طعمَها ولا نحنُ في شيء كذاك البحائر[٤]

- التركيب: بَحَرَ الناقةَ أو الشاةَ: شَقَّ أذنَها[٥].

وفي تفسير السائبة خمسة أقوال[٦] عددها أهل اللغة والمفسرون، وهي فاعلة بمعنى مفعولة[٧] أي المهملة التي كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه. وكذا اختفى ألفاظ أخرى وتراكيب مع اختفاء السائبة، مثل:

(١) المفردات للراغب (ب ح ر) ص ٤٨.

(٢) انظر: أربعة أقوال في تفسيرها في: زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج الجوزي ٢/٤٣٦.

(٣) مسند أحمد ٣/٤٧٣، وانظر: تفسير الطبري ٧/٥٦، ٥٧، وتفسير النسائي ١/٤٥٤.

(٤) انظر تفسير القرطبي /٣١٢.

(٥) انظر المفردات للراغب ص٤٨، ولسان العرب ب ح ر.

(٦) انظر زاد المسير ٢/٤٣٧.

(٧) القرطبي ٦/٣١٢.

- جمع السائبة على سوائب وسُيَّب[١].

- التركيب: سيَّب السَّوائبَ: تركَها وخلاها تُسيَّب حيث تشاء[٢].

قال الشاعر في السائبة:

وسائبة لله تنمي تشكراً إنِ الله عافى عامراً أو مجاشعاً[٣]

أما الوصيلة فهى الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، ومن الشاء التي وصلت سبعة أبطن عناقين عناقين، فإن ولدت في السابعة عناقاً وجدياً قيل وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها، ولا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء، وتجري الوصيلة مجرى السائبة، وجمعوها على وصيل ووصائل[٤]. وفي معناها أقوال أخرى[٥].

والحامي، ومؤنثه حامية، من الإبل الذي طال مكثه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحمَوا ظهره وتركوه[٦]. وفيه أقوال أخرى كثيرة[٧]. قال: الشاعر في الحامي، وذكر الفعل الماضي[٨]:

حماها أبو قابوس في عزِّ ملكه كما حَمَى أولادَ أولادِه الفحلُ

إن هذه الفئات من السائمة عاب القرآن على الجاهليين تسميتهم وشرعهم فيها حتى أبطلها الإسلام، وفكرة التطور الذي يؤدي إلى الاندثار اللغوي مرحلياً فكرة

(١) لسان العرب مادة (س ي ب) ١ / ٤٧٨.

(٢) السابق ١ / ٤٧٨ وانظر مفردات الراغب ٢٥٥.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٦ / ٣١٢.

(٤) المعجم الوسيط و ص ل.

(٥) انظر في زاد المسير ٢ / ٤٣٨ خمسة أقوال.

(٦) الوسيط مادة (ح م ي).

(٧) انظر في زاد المسير ٢ / ٤٣٩ ستة أقوال فيه.

(٨) تفسير القرطبي ٦ / ٣١٣.

غير مقصودة في هذا القطاع من الألفاظ لأنها قد ماتت موت فجأةٍ من الحياة اللغوية. وكل معانيها تعطي تصوراً واحداً مضاداً لأصل الدين، لذلك عمل الإسلام على وأدها بضربة حازمة لا مرحلية فيها.

* تلبيات العرب في الجاهلية:

ظهر التحريف في ملة إبراهيم – عليه السلام – فما ترك شيئاً من بقايا الملة السمحة إلا عكر صفوه وجعل عليه غشاوة. وكان للعرب تلبيات شركية، سجّلها العلماء في كتبهم، وحكوا روايتها، فحكى قطرب أبو علي محمد بن المستنير عن التَّلابي تلبياتٍ لقريش وقيس وثقيف وكنانة وتميم وبني أسد وهذيل وربيعة وبكر بن وائل من ربيعة واليمن وجرهم وحِميَر والأزد وقضاعة وهمدان ومذْحِج وعكّ وكِندة وبجيلة وخزاعة والنَّخع والأشعريين والأنصار(١)، ومنها:

لبيكَ إنَّ الحمد لك والملكَ لا شريك لكْ

إلا شريكٌ هو لك تَملِكه وما مَلَـكْ

أبو بناتٍ في فَدَك

وفدك يومئذ فيها أصنام، وقولهم:

لبيك رب همدان من شاحط ومن دان

وقولهم: لبيكَ عن سعد وعن بنِيها وعن نساءٍ خلفها تعنيها

كانت تلك التلبيات يحفظها العرب على اختلاف القبائل، ويرددونها في محافلهم الدينية حول الكعبة وفي مكة، فأصبحت تلك التلبيات من التراكيب المهجورة التي حظرها الإسلام لمخالفتها سنة التوحيد الذي أرسل الله به الرسل، وجاءت تلبية الإسلام تؤكد مبدأ التوحيد ونفي الشريك.

(١) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص٣٩ ص٤٤، ورسالة الغفران لأبي العلاء شرحها د.مفيد قميحة ص٣٣٠، ص٣٣٣.

* الأيمان المحرَّمة (الحلف بغير الله) :

تخلص الإسلام من تعبيرات الحلف بغير الله ونهى عن استعمالها وفي هذا آثار كثيرة تشدد في هذا الأمر وتجعل الحلف تعظيماً لا يجوز إلا لله. وكان للعرب أيمان كثيرة قد اندثرت وما عادت مستخدمة، فمما حكاه الأصمعي : تقول العرب : "لا والنهارِ الأزهرِ والليلِ الأخضر"(١). وثمة أيمان أخرى وتراكيب قد هُجرت بعد تشديد الإسلام في أمر الحلف بغير الله تعالى ونهيه عنه.

* الاستقسام بالأزلام :

هذا باب عظيم من حياة العرب في الجاهلية، وهو من الجوانب الشائهة التي شَنَّ القرآن عليها حملة مفزعة، حين قرن بينها وبين صنوف من الطعوم الخبيثة التي حرمها الإسلام قطعاً، قال تعالى : ﴿ حُرِّمت عليكُم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أهلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والموقوذةُ والمتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أكل السَّبُع إلا ما ذَكَّيتم وما ذُبِح على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فِسقٌ.. ﴾ (المائدة / الآية ٣)، فأبطل الإسلام ذلك كله وحرم التمتع بتلك المظاهر الجاهلية.

و"الأزلام" حقل دلالي له ألفاظه الخاصة ومفرداته الدالة على أدواته. والمفرد منه "زلم" وهو السهم أو القدح الذي لا ريش عليه(٢)، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بها، ويكتبون عليها الأمر والنهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً فإذا خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي كفَّ(٣). وصارت تلك الكلمة، بعد نهي الإسلام وإبطاله لتلك العادة، تحمل دلالة قبيحة ترتبط بما كان عليه العرب من وثنية. وفي زمن قصير

(١) متخير الألفاظ لابن فارس تحقيق هلال ناجي ص٧٣.

(٢) لسان العرب زل م ١٢ / ٢٦٩ ،الوسيط ز ل م . وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه، فإذا أراد الاستسقام أخرج أحدهما .

(٣) انظر: شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٤٩ .

اختفت مفردات ذلك الحقل إلا ما تردد على لسان شاعر من الشعراء. فالسهام التي كان يجال بها سميت بأسماء وأعطوا كل واحد منها نصيباً، وهي[١]:

- الفذُّ، وله نصيب واحد إذا فاز.
- التوءم، وله نصيبان.
- الرقيب، وله ثلاثة أنصباء.
- الحلس، وله أربعة أنصباء.
- النافس، وله خمسة أنصباء.
- المسبل، وله ستة أنصباء.
- المعلَّى، وله سبعة أنصباء.
- الوغد، والسفيح، والمنيح، وهي سهام لا نصيب لها.

وقيل مما اتفق عليه الأصمعي وغيره من أهل العلم أن الفائز من تلك السهام سبعة، وهي الفذ والتوءم والضريب ـ وهو المصفح ـ والحلس والنافس والمسبل والمعلى، فهذه سبعة، ومنها ما لا نصيب له وهي السفيح والمنيح والرقيب والوغد[٢].

وقد صارت تلك المفردات تاريخاً لغوياً سجلته المعجمات وهو أحرى أن يسمى بالمعجم المهجور.

ومما يتصل بهذا الباب ما عرف عن العرب من التطير والتشاؤم في الجاهلية، وهي خصلة تجانب التوكل على الله وحده وتنافيه، والتوكل على الله من صفات الموحدين. ومن شوائب الجاهلية ما عرف بالسانح – وقيل السنيح – والبارح، قال ابن بري: العرب تختلف في العيافة، يعني التيمن بالسانح، والتشاؤم بالبارح، فأهل نجد يتيمنون بالسانح... ثم قد يستعمل النجدي لغة الحجازي"[٣]،

(١) انظر: السابق ص ٤٩ (بتصرف).

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد ٣/٤٨٩.

(٣) لسان العرب مادة (س ن ح) ٢/٤٩١.

فالبارح ما مرَّ من الطير والوحش عن يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف، والسانح ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمن به لأنه أمكنُ للرمي والصيد(١).

وربما ورد في لغة الشعر القديم الإبقاء على تلك الألفاظ، وهذا خصيصة للشعراء فإن لهم لغتهم الخاصة بهم، التي لا يستعملها غيرهم من الناس، ثم هو بعدُ تاريخ أدبي قد اختفى كذلك من الحياة الأدبية.

* ألفاظ الخمر وأدواتها:

وتلك لذة غرق العرب فيها يوم أن لم يكن لهم ما يشغل أوقاتهم ويملأ عليهم مشاعرهم واهتماماتهم. وقد نهى الإسلام عن الخمر على مراحل وعمل على بيان فظاعتها وقبحها وبعث الكراهية التدريجية فيهم، وهو نهج يختلف عما سبق من أمور تناقض التوحيد وأصول الدين. نهى الإسلام عن تسمية الخمر بغير اسمها، وأبقى القرآن على لفظة "الخمر" وهي المادة التي تلتصق التصاقاً وثيقاً بعلة التحريم، وكذا أبقى على مثل (السَّكر) وهو اسم يدل على الصفة نفسها التي جاء التحريم من أجلها، أما بقية الصفات ومعها أسماء أدوات الخمر فكادت تختفي من المجتمع المسلم إلا أن يتغنى بها شاعر وقد عللنا لذلك من قبل.

ففي أسماء الخمر ورد المئات من الألفاظ التي لا تخلو من خلط وتساهل في تحديد دلالتها(٢). حينما نزل تحريم الخمر ووجوب تسميتها باسمها اختفت ألفاظ مثل: المدام، والصَّهباء، والقَهْوة، والراح، والمُزّاء، والعُقار، والسَّلسال، والخَندريس، والكَرْم، والصبوح، والياقوت، والمقتولة، فلم تعد أسماع المسلمين تقبل وصفاً غير ما ذكره الله ورسوله. قال ابن عباس: "حرمت الخمر بعينها والسَّكَر من كل

(١) السابق مادة(ب رح) ٢ / ٤١١.

(٢) انظر: الترادف في اللغة، حاكم مالك الزيادي، ص ٢٩٦.

شراب"(١). وقد أفاض الشراح من اللغويين في حديث النبي ﷺ: «لا تسمُّوا العنبَ الكَرْمَ فإن الكرم الرجل المسلم»(٢).

فمما قيل إن الكرم يسمى كرماً لأن الخمر المتخذة منه تحث على السخاء وتأمر بمكارم الأخلاق، فاشتقوا له اسماً من الكرم.. فكره النبي ﷺ أن يسمى أصل الخمر باسم مأخوذ من الكرم وجعل المؤمن أولى بهذا الاسم الحسن.."(٣)، وكذلك سميت الخمر راحاً لأن شاربها يرتاح للعطاء أي يخف. وصرف الزمخشري(٤) غرض الحديث عن إرادة حقيقة النهي، وإنما المراد هو الإشارة إلى أن المسلم التقي جدير بألا يشارك فيما سماه الله به مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿إن أكرمَكُم عند اللهِ أتقاكُم﴾ (الحجرات/ الآية ١٣).

وعلى قوة تفسير الزمخشري يبقى الأصل العام من نهي الإسلام عن تسمية المحرمات بغير اسمها، وسقوط كثير من صفات الخمر أو مترادفاتها دليل ذلك الأصل. وصاحب ذلك سقوط للألفاظ الدالة على أدوات صناعة الخمر التي استعملت في الجاهلية. جاء في الحديث عن ابن عمر وابن عباس قالا: نشهد أن رسول الله ﷺ نهى عن الدُّبّاء والحَنْتَم والمُزَفَّت والنَّقير"(٥)، فأما الدُّبّاء فأصله القرع وواحدته دُبَّاءة(٦). ثم صار من أوعية الخمر. والحنتم أصله (الخضرة) فكان ذلك النوع من الأوعية جراراً خضراً مدهونة تضرب إلى الحمرة ثم اتسع فقيل لكل الخزف حنتم(٧). والنقير هو المشتور من الخشب فكانت الخشبة تنقر وينبذ فيها(٨)،

(١) إصلاح غلط المحدثين للخطابي ص٦٠.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٢٤٧) جزء ١٥/٧.

(٣) لسان العرب، مادة (ك ر م) ١٢/٥١٤.

(٤) الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٣/٢٥٧.

(٥) عون المعبود (شرح سنن أبي داود) حديث رقم ٣٦٧٢ جزء ١٠ ص ١٥٥.

(٦) معجم متن اللغة أ. أحمد رضا، ب د ب، د ب ي.

(٧) معجم متن اللغة (ح ن ت م) ٢/١٧٦.

(٨) السابق ٥/٥٢٨.

والمزفَّت المطلي بالزفت. والجامع بين تلك الألفاظ أنها أدوات أو ظروف للخمر. وبعد أن كانت تلك الأدوات ركائز في صناعة المال لدى المجتمع الجاهلي أصبحت هدراً لا حرمة لها واختفت ألفاظها وهُجرت بهجرة الأشياء نفسها.

* الأيام والشهور:

لكل أمة نظام اجتماعي لحساب الأيام والشهور، ووضع الإسلام يده على بعض النظم الاجتماعية في الجاهلية، وكان ذلك إما بإقرار بعضها وإزالة بعضها الآخر وإما بالإزالة التامة لها، "قضى الإسلام على أسماء الأيام والأشهر في الجاهلية لاتصال بعضها في أذهان العرب بشؤون وثنية أو نظم جاهلية واستبدل بها أسماءها الحالية"(١)، فمن العرب من كان يسمي الأحد أول، والإثنين أهون أو أوهد أو أهود، والثلاثاء جبار، والأربعاء دبار، والخميس مؤنس، والجمعة العروبة، والسبت شِيار.

وقد نظمها الشاعر في قوله:

أرجِّي أن أعيش وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو المروي دبار فإن أفُته فمؤنس أو عروبة أو شيار

ويروى: أو التالي دبار فإنَّ يومي بمؤنس أو عروبة أو شيار
هي الأيام دنيانا عليها ممر الليل دأباً والنهار(٢)

وعلى ما في الأبيات من إبراز حسن الجمع فحسب إلا أن استعمالها كان حاصلاً في الجاهلية(٣).

أما عن أسماء الشهور(٤) فسنذكر منها ثلاث قوائم استعملها العرب وبقيت

(١) فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص ١١٧.

(٢) انظر: الأيام والليالي والشهور للفراء ص٣٧، وجمهرة اللغة لابن دريد٣/ ٤٨٩.

(٣) ورد ذلك في شعر الأعشى والقطامي. انظر الأيام والليالي والشهور ص ٣٨. وديوان القطامي ص١٢ طبعة بريل ١٩٠٢م.

(٤) في أسماء الشهور سيرد علينا رأي الدكتور وافي فيما بعد.

القائمة الأخيرة وهجرت قائمتان وقد تجد للشهر أكثر من ثلاثة أسماء، والقوائم هي[1]:

ناتق ← المؤتمر ← المحرم

ثقيل ← ناجر ← صفر

طليق ← خوّان ← ربيع الأول

ناجر ← وبصان وقيل بصان وقيل صوان من الصيانة ← ربيع الآخر

أسلج
أسلخ
سماح
سماخ
← الحُنَين وقيل الزّباء وهي الداهية ← جمادى الأولى

أمنح ← ربَّى وقيل البائد لكثرة القتال فيه، وقيل وَرْنة أو رِنة ← جمادى الآخرة

أحلك ← الأصم ← رجب

كسع ← عاذل وقيل الواغل لدخوله على رمضان كالهاجم على قوم ← شعبان

زاهر ← ناتق وقيل الباطل وهو كوز يكال به الخمر ← رمضان

برط
مرط
← وعل وقيل العادل لأنه من أشهر الحج وقيل عاذل بالذال المعجمة ← شوال

حرف
نعيس
← ورنة وقيل رنة لأن الأنعام كانت ترن فيه لقرب النحر وقيل هُواع ← ذو القعدة

نعس
مريس
← بُرك وقيل تُرك لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه ← ذو الحجة

(١) انظر في هذا: الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص٤٧، الأيام والليالي والشهور ص٤١ ص٥٣، جمهرة اللغة لابن دريد ٣/ ٤٨٩، والمخصص لابن سيده ٩/ ٤٣، والآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ص٣٢٥ تحقيق إدوارد ساشيو، وفقه اللغة د. علي عبدالواحد وافي ص ١١٧.

إن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، كان العرب في الجاهلية يكبسونها فتدور مع سنة الشمس، وقد حرم القرآن النسيء فاستعمل المسلمون الشهور غير منسأة(١). ويتضح من أساميها أن العرب قد تواطأت في الجاهلية على تلك الأسماء إما دلالة منهم على أوقاتهم من السنة. وإما دلالة على فعلهم في تلك الشهور(٢). وكانت الشهور مقسومة على فصول الأزمنة الأربعة وكانوا يبتدئون منها بالخريف ويسمونه الربيع ثم الشتاء ثم الربيع ويسمونه صيفاً وسماه بعضهم الربيع الثاني ثم الصيف ويسمونه القيظ، "غير أن تسميتهم إياها عليها تركت وأهملت فلم تحفظ"(٣).

إن المتأمل في أسماء تلك الشهور يلمح الخلط فيما بينها ثم اختلافهم في دلالات تلك الأسماء فضلاً عن اختلافهم في التسمية بها، فذو القعدة ورد له خمسة أسماء: حرف، ونعيس، وورنة(٤)، ورنة، وهواع(٥)، وشهر ربيع الآخر بصان، ووبصان. وذو الحجة برك وترك. وكلها ألفاظ قريبة الصورة لعل التصحيف دب طريقاً إلى بعضها. وهذا يرجع إلى عدم تدوين تاريخ العرب لمثل تلك الأمور، والتاريخ المنتظم من عناصر قيام الأمة لحفظ أحداثها، لكن الاضطراب وضحالة ينابيع الفكر تمكنا من جزيرة العرب الوثنية إلى أن بعث الله محمداً ﷺ ونزل القرآن يتحدث عن الشهور وبدعة النسيء، وخطب النبي ﷺ في حجته فقال: "ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان"(٦).

(١) الآثار الباقية ٣٢٥، ٣٢٨.

(٢) السابق ص ٣٢٥.

(٣) السابق ص ٣٢٥.

(٤) في الأيام والليالي والشهور ص٥١: ورنة أو رنة من أسماء جمادى الآخرة.

(٥) لسان العرب هـ و ع ٨/ ٣٧٨.

(٦) السنن الكبرى للنسائي حديث رقم ٤٢٥، جزء ص ٤٦٩.

وهذا ثبات منشود وعامل من عوامل قيام الأمة وحفظ كيانها. وقد استدرك الدكتور وافي على الرأي فقال "أما أسماء الشهور فالمستعمل منها الآن ليس في الحقيقة من وضع الإسلام، وإنما وضعت في عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبي ﷺ وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين تقريباً، وأما أسماؤها القديمة فليست معروفة على وجه اليقين"(١).

وإن قرنين من الزمان قد لا يكفيان لإحداث تغيير أخير في أسماء الشهور وإن كان المسلمون أهلاً لذلك التغيير حين يطلب منهم، لكن اضطراب الأسماء في لفظها ودلالة بعضها يصور ما كانت عليه العرب ونفاه الإسلام واستبدل به نظاماً موحداً خضعت له الأمة حتى الآن.

ذلك ما كان من حقول دلالية تتصل بنظام الجاهلية الوثني، ولا نعدم أثر الإسلام واضحاً في إهمال أنظمة اجتماعية أخرى مثل نظام النكاح ونظام غنائم الحرب والمعاملات عامة(٢).

ألفاظ الآداب ومسالك حسن التعبير(*):

للإسلام شأن عظيم مع هذا الباب، وثمة نواه وأوامر وردت في أحاديث كثيرة

(١) فقه اللغة ص ١١٧.

(٢) من الألفاظ الخاصة بدلالة الزواج ما يعرف بنكاح الشِّغار، وهو نكاح في الجاهلية: تُزوِّج الرجلَ امرأةً ما كانت على أنه يزوِّجك أخرى بغير مهر، وخص بعضهم به القرائب (لسان العرب ش غ ر ٤/٤١٧). وما يعرف بالصارورة أو الصارور وهو من ترك الزواج. (الوسيط ص ر ر) ومن الألفاظ الخاصة بغنائم الحرب: المرباع والصفايا والنشيطة والفضول (فقه اللغة ص١١٧). كذا لفظ: "الحُلوان" وهو أجرة الدَّلال والكاهن (الوسيط ح ل و). وتكثر مثل هذه الألفاظ في نظام المعاملات الجاهلي الذي قضى عليه الإسلام. ومن هذا الإتاوة وهي الخراج، والحملان والمكس وهو ما يأخذه السلطان رشوةً ونحو ذلك من ألفاظ (انظر: معجم المناهي اللفظية ص ٦٤).

(*) في هذا الحقل وغيره من الحقول الدلالية التي تحتوي كثيراً من التراكيب أو الألفاظ المنهي عنها ـ أشير إلى "معجم المناهي اللفظية" لبكر بن عبدالله أبوزيد، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٩م، دار العاصمة، وهو معجم معاصر فريد في مادته، جمع فيه مؤلفه ألفاظًا وتراكيب منهيًّا عنها، ووزعها على أربعة عشر صنفًا.

توقف الشراح أمامها، فحملوها على أن الأصل في الأدب أنه مندوب إليه[١]. ومعلوم أن تحصيل الآداب ليس كتحصيل أصول الدين ومقاصده.

ومن هذا قول العرب للرجل الذي تزوج: بالرفاء والبنين، وقولهم: رفَّأه: دعا له، وقال له، بالرفاء والبنين، وباركه. والرفاء هو الالتئام والاتفاق والبركة والنماء، وإنما نهى عنه كراهية لأنه كان من عاداتهم ولهذا سن غيره[٢]. وفي الحديث المروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: كان إذا رفأ الإنسان إذا تزوج قال: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير"[٣]. وأصل التعبير من الرفء وهو على معنيين، أحدهما التسكين، يقال: رفوت الرجل إذا سكنت ما به من روع ... والآخر بمعنى الموافقة والمواءمة ومنه رفوت الثوب وفيه لغتان: يقال: رفوت الثوب ورفأته[٤]. ويحرص كثير من المسلمين على تمثل تلك الآداب النبوية وتحري هذه التعبيرات المأثورة وهجر ما عداها.

ومن هذا الباب عبارة: بنى الرجل على امرأته. إذ كانت تستخدم كناية عن دخوله بها، لأن الشاب العربي كان إذا تزوج يبني له ولأهله خباء جديداً، ولكن العبارة فقدت معناها الأصلي لانقراض هذا النظام، وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزِّفاف[٥].

ألفاظ الأدب وأثر انحطاط الدلالة في اللغة المعاصرة:

والحديث عن ألفاظ الأدب السابقة يملي علينا النظر في تأثير مسألة انحطاط الدلالة في قضية هجر بعض الألفاظ، فكثيراً ما يصاب اللفظ بما يعرف بانحطاط

(١) إشاد الفحول (بتصرف) ١/٢٥٣.

(٢) لسان العرب رف أ ١/٢٨٧، معجم متن اللغة أحمد رضا ٢/٦١٦.

(٣) معالم السنن (شرح سنن الإمام أبي داود لأبي سليمان الخطابي ٣/٢١٦.

(٤) السابق ٣/٢١٦، ٢١٧.

(٥) اللغة والمجتمع ص ٢٣، ٢٤.

الدلالة فينحدر إلى معنى أقل ... وانحطاط الدلالة يسمى اصطلاحاً (Pejoration) وعكسه ارتفاع المعنى enhancement أو amelioration[١].

يظهر انحطاط الدلالة كثيراً في اللغة المعاصرة، ويخالطه نفوذ ديني قد يكون موهوماً في أحيان كثيرة، فنرى بعض المسلمين ينتابهم الحرج من إطلاق مثل لفظة (الدُّخلة) دلالة على ليلة البناء على الرغم من حصول المرجعية فيها إلى كتب اللغة والفقه واستعمال القرآن للفعل (دخل الرَّجلُ بالمرأة) في قوله تعالى: ﴿ فإن لم تكونوا دخلتُم بِهنَّ ... ﴾ (النساء / الآية ٢٣) فيتحرز بعض المسلمين من إطلاق (الدخلة) ويقولون ليلة البناء ويقويهم في هذا السلوك انحطاط الدلالة.

وقريب من هذا الأدب قول عائشة – رضي الله عنها – قال النبي ﷺ: "لا يقولن أحدكم خبثُت نفسي ولكن ليقل لقِست نفسي"[٢] ولقست بمعنى خبثت غير أنه اختار لفظاً بريئاً من الشناعة، وإنما كره لفظ الخبث لبشاعة الاسم، وعلَّمهم الأدب في الألفاظ واستعمال حسنها وهجران خبيثها[٣]. وكلا التعبيرين مهجور الآن فلا أحد يقول: خبثت نفسي، ولا أحد يقول: لقست نفسي. غير أن الأدب النبوي يخفف من وطأة التعبيرات التي كانت سائدة في الجاهلية. وإن كان لا يستطيع نفيها في وقت قصير، ويسانده في ذلك مسألة انحطاط الدلالة.

ويأتينا في هذا الشأن حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقولن أحدُكم عبدي وأمتي كلُّكم عبيد الله وكل نسائكم إمائكم ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي"[٤].

---

(١) أسس علم اللغة ١٥٨.

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي رقم ٢٢٥٠ جزء ١٥ ص ١١.

(٣) السابق ١٥ / ١١.

(٤) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، حديث رقم ٢٢٤٩ جزء ١٥ ص ٩.

وهذا أدب نبوي جم يناهض ما كانت عليه الجاهلية من أوضاع الرق والعبودية. وهو نظام اجتماعي جاهلي قضى عليه الإسلام تدريجياً بتجفيف منابعه وموارده التي كانت تبعثه. والعبد هو المملوك أو خلاف الحر[١]، وقال صاحب العين: العبد: الإنسان حراً كان أو رقيقاً، هو عبد الله[٢]. قال ابن سيده "يذهب بذلك إلى أنه عبد لباريه عز وجل[٣]. واستعمل العرف اللغوي الجمع (عبيد) في المماليك والجمع (عباد) مختص بالله سبحانه وتعالى[٤]، إذ يقال عباد الله. وإن طرح كلمة (عبيد) وقصرها على المماليك هو الغالب، وفي هذا تنحية للكلمة وعزلها عزلاً دلالياً. والعرف اللغوي دال على عرف الناس الاجتماعي الذي يشكل النفوذ الديني أحد قوالبه وأدواته فينهى الحديث عن استعمال كل من (عبدي) و(أمتي) ويأمر باستخدام (غلامي) و(جاريتي) و(فتاي) و(فتاتي). وإذا تأملنا في النص القرآني وجدناه يستخدم الأمة فيقول: ﴿ولأمة مؤمنةٌ خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتُكم﴾ (البقرة / الآية ٢٢١) ويستخدم الجمع (إماء) في قوله تعالى: ﴿والصالحينَ من عبادِكم وإمائِكم﴾ (النور / الآية٣٢). والقرآن في هذا يأخذ بأيديهم إلى تغيير تصورهم القبيح لهذه الطائفة المظلومة من البشر. وعند حديثه عن نعيم الآخرة عدل عدولاً واضحًا عما له دلالة شائهة إلى الجماليات القرآنية التي تأخذ بأيدي المجتمع إلى دلالات جديدة طيبة المعاني فقال تعالى: ﴿وعِنْدَهُم قاصِراتُ الطَّرف عِينٌ﴾ (الصافات / الآية ٤٨). وفي آية ثانية: ﴿وعندهم قاصِرات الطَّرف أتْرابٌ﴾ (ص: الآية ٥٢). وفي آية أخرى: ﴿فيهن

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٢٠٥، المصباح المنير للفيومي ع ب د.

(١) العين للخليل ٢/٤٨.

(١) المحكم والمحيط الأعظم ٢/١٩.

(١) انظر في هذا: جموع التكسير والعرف واللغوي د.محمود محمد الطناحي. مجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٧١/ص١٨٣ عدد جمادى الأولى ١٤١٣هـ نوفمبر ١٩٩٢م.

قاصِراتُ الطَّرفِ لم يطمثْهنَّ إنسٌ قبلَهُم ولا جانٌّ﴾ (الرحمن: الآية ٥٦).

ولقد كانت دلالة لفظ (الجارية) لا تعني سوى الخادمة، ثم انحطت الدلالة في اللغة المعاصرة لتحمل ملامح قبيحة مما كانت عليه الجاهلية وما يحيط بقضية الرِّق وملك اليمين. واكتسبت العربية المعاصرة حساسية مفرطة لبعض هذه الألفاظ القديمة خشية الوقوع في بعض الإيحاءات التي نهى عنها الإسلام وعمل على قضائها في المجتمع المسلم الجديد. ودليل ذلك استعمال كثير من المعجميين المحدثين وأرباب صناعة المعجم الحديث، فإنهم يؤثرون لفظة (الفتاة) على لفظة الجارية ويولعون بذلك، وإن أفعالاً مما يخص الإناث نحو (وَصْوَصَتْ)، و(تنقَّبتْ)، و(تقتلتْ)، و(نهدتْ)[١]. يغلب أن يكون فاعلها أو المسند إليه المرأة أو الفتاة وليس الجارية.

وعرفت المعجمات القديمة "البِكْر" بأنها الجارية التي لم تُفتض، وجمعها أبكار، والبكر من النساء التي لم يقربها رجل، والبكر العذراء[٢]. في حين تخلصت المعجمات الحديثة من العبارة الأولى[٣].

ونحت المعجمات الحديثة هذا النحو مع ألفاظ وعبارات مثل (أهل الذمة)، و(الجزية) و(ملك اليمين)، وهي ألفاظ لم يجد الإسلام حرجاً في استعمالها، لكنها بعد انحطاط دلالتها نُحيتْ وعُزلت عزلاً دلالياً فلم تعد تستعمل في اللغة إلا قليلاً، إشفاقاً من المتحدث أو الكاتب أن يتهم الإسلام باتهامات باطلة. وإن انحطاط الدلالة مبعثه العرف اللغوي الذي يصنع كثيراً من المعتقدات والمفاهيم سواء كانت خاطئة أم صائبة.

(١) انظر هذه المواد في المعجم الوسيط : وفي المعجم العربي الأساسي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم): و ص و ص، ن ق ب ،ق ت ل، ن هـ د .

(٢) لسان العرب : ب ك ر ٤ / ٧٨.

(٣) انظر على سبيل المثال الوسيط : ب ك ر .

* تسميات الأشخاص:

يبرز المهجور اللفظي في تحري آداب الدين وسلوك ما يرتضيه الرسول ﷺ في قضية التسمية بالمأثور من الأسماء والمندوب إليه منها والبعد عما نهى عنه النبي ﷺ. ففي الحديث: أراد النبي ﷺ أن ينهي أن يسمى بيعلي وببركة وبأفلح وبيسار وبنافع ونحو ذلك، ثم سكت ولم يقل شيئاً"(١).

وقد تناول الشراح مثل هذه الأحاديث تناولاً حسناً، فالنهي لكراهة التنزيه، وهذا عدول عن كراهة التحريم إلى كراهة التنزيه(٢).

وقال ابن الجوزي: إنما كره ذلك لشيئين: أحدهما أن هذه الأسماء تتضمن تزكية المسمين ومدحهم. والثاني: أنه قد يقال: أفي البيت بركة؟ أها هنا نافع؟ فيقال: لا، فكره ذلك(٣). وعلى ما في هذا الشرح من منحى فقهي يقول بكراهة التنزيه، ظهر حرص كثير من المسلمين على هجر تلك الأسماء وتوخي المأثور. ولم يكن النبي ﷺ يرضى عن أسماء تحمل قبحاً أو تشاؤماً أو معنى غير جميل أو اسماً يمس قضية التوحيد وأصل الدين.

ظاهرة المهجور وأثر المترادف اللغوي والمشترك اللفظي:

بقي في مباحثتنا الحديث عن ظاهرة المترادف اللغوي أو ما أسماه البعض بالمتوارد(٤)، وأثر ذلك في التطور اللغوي خاصة المهجور اللفظي، فليس يعقل أن يتكلم العربي بنيف ومائة وستين كلمة وضعت للبن وحالاته(٥). ولقد أبقت اللغة على ما تحتاج إليه من ألفاظ وأهملت مثل السَّملج أو السَّمْهَج، وإن حاجة العربي

(١) شرح صحيح مسلم حديث رقم ٢١٣٨.

(٢) عون المعبود (شرح سنن أبي داوود) جزء ١٣ ص ٣٠٠.

(٣) كشف المشكل في حديث الصحيحين لابن الجوزي جزء ٣ ص ٨٠.

(٤) المزهر في علوم اللغة ١/ ٤٠٦.

(٥) أخطاء اللغويين د.محمد كامل حسين، مجلة مجمع اللغة العربية جزء ٢٢ سنة ١٩٦٧م.

الاجتماعية قد تكون فرضت عليه التكلم بمثل تلك الأوصاف كأن نقرأ للعسل ثمانين اسماً أو اثنين وثمانين[١]. بيد أن اللغويين بالغوا في هذا وكان ثمة خلط وتساهل بين كثير من المترادفات باختلاط بعض أسماء الخمر بأسماء العسل مثلاً. وعلاقة ذلك بالمهجور اللفظي أن طبيعة اللغة تأبى أن يكون هذا حالها من التطور، فبدهي أن يسقط الكثير من المترادف ويهمل. ولقد تتبع اللغويون "الكلمات الدالة على معنى واحد في مختلف العصور غاضين النظر عن اتحادها في الزمان والمكان والبيئة حتى وإن كانت هذه الكلمات مهجورة أو مماتة... ولو أنهم نظروا إليها .. نظرة وصفية وقيدوها ببيئة معينة ضمن زمان ومكان محددين لتبين لهم أن القلة منها مستعملة وما سواها مهجور .. لقد تناسى هؤلاء أن أكثر المترادفات قد صارت من الثروات الضائعة التي لا يحتاج إليها.."[٢].

أما المشترك اللفظي فقد يتسبب في هجر أحد المعنيين وتركه بالكلية لتصادمه مع المعنى الآخر ولا يحدث ذلك إلا إذا كانت الكلمتان مستعملتين في نفس المجال اللغوي، وفي طبقة اجتماعية واحدة وفي جملة وعبارات مماثلة وفي فترة زمنية واحدة[٣]. ومن أمثلة ذلك في القديم الاشتراك اللفظي بين (ثعبان) وهو العظيم من الحيات، و(ثُعبان) جمع (ثَعْب) وهو مسيل الوادي[٤]، فقد هجر المعنى الثاني.

(١) انظر المزهر في علوم اللغة ١ / ٤٠٧. ومن ثم لا ينبغي أن نحمل اللغويين الخطأ المطلق في عملية جمع اللغة، فإذا كان لدى الإنجليزي كلمة واحدة للثلج أو ثنتان فإن لدى شعب الإسكيمو كلمات عديدة يميزون بها حالات الثلوج. وإن المتأمّل في لغة النّجديين من أهل الرياض وغيرهم ممّن جاورهم يجد كثيراً من هذه المترادفات المهجورة مستعملةً لديهم، فليست تلك القوائم العريضة من المترادفات رُكامًا صنعه اللغويّون، فمازال أهل الرياض ـ أو بعضهم ـ يستعملون "الماصِل" وصفًا للبن الذي علاه الماء أو اللّبن القليل أو غير المرغوب فيه بعموم.

(٢) الترادف في اللغة، حاكم مالك الزيادي ص ٢٩٠.

(٣) من قضايا اللغة والنحو ص ٣١.

(٤) تاج العروس للزبيدي مادة ث ع ب جزء ٢. وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت ١٣٨٥هـ.

ومن أمثلة ذلك في اللغة المعاصرة الاشتراك اللفظي الحاصل بين (الجِنان) جمع (الجَنّة) و(الجِنان) الذي يعني (الجنون) مصدراً في اللغة الدارجة، فكثير من المثقفين يُصرف صرفًا عن لفظة (الجنان) ويستخدم بدلاً منها الجمع السالم (جنات) .

ولا يخفى دور الثنائية الحاصلة بين العامية والفصحى في الكشف عن كثير من المهجور اللفظي، فثمة قطاع عريض من الألفاظ المهجورة يظهر في عاميات البلاد العربية التي تكشف أحياناً القيمة الدلالية للفظ المهجور(١). وقد سمى بعضهم هذه الألفاظ المهجورة المحكية "بقايا الفِصاح"(٢).

*** خاتمة وتعقيب :**

لا يمكننا بحال من الأحوال إغفال التطور اللغوي الذي يحدثه الترادف أو المشترك اللفظي، كما لا يمكننا إغفال القيمة الصوتية للفظ وحسن مخرجه ليبقى حياً، أو يموت لاستثقال مخرجه وصعوبة نطقه، فيصبح غريبًا عن الأسماع والاستعمال فيحدث الهجر(٣). بيد أن البحث أبرز دور الإسلام في القضاء على كثير من الألفاظ الفصيحة التي كانت مستعملة في الجاهلية خالية من الثقل اللفظي أو العوامل الذاتية المؤثرة في قضية الهجر.

لقد حدث نوع من الاغتراب اللغوي لتلك المفردات، صنع هذا الاغتراب فجوة بين المسلم العربي وهذه المفردات أو التعبيرات بسبب النفوذ الديني المحكم، وكان

(١) انظر على سبيل المثال مقال العامية والفصيح المهجور ضمن كتاب : درس تاريخي في العربية المحكية د . إبراهيم السامراني ص ٢٢٥ .

(٢) اللغة والحضارة د . إبراهيم السامرائي ص ١٢٤ .

(٣) انظر: موت الألفاظ في العربية، د . عبدالرزاق بن فراج الصاعدي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٠٧ السنة ٢٩– ١٤١٨ / ١٤١٩هـ

htm. sa/magazine/107/10. edu. iu. http://www

من غرض البحث تأصيل الظاهرة واستجلاء أسسها الفكرية فشاب ذلك عموم في التناول؛ فتلك حلقة من حلقات الدرس التاريخي للعربية القديمة بعد ظهور الإسلام، وتتبع المفردات ومعانيها يحتاج إلى استقراء كامل يليه توزيع دقيق للحقول الدلالية مع بيان المهجور من الألفاظ وقوة العدول عنه في العربية المعاصرة ومستوياتها. ونحن في مسيس الحاجة إلى التطبيق على كثير من تلك الحقول وحصر لكثير من المفردات والتعبيرات لإكمال ذلك الدرس اللغوي التاريخي.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

* إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقِّ من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
* الأزمنة وتلبية الجاهلية، أبو علي محمد بن المستنير قطرب، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م
* أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الثامنة، ١٤١٩هـ-١٩٨٦م.
* إصلاح غلط المحدثين، أبوسليمان الخطابي، تحقيق ودراسة د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.
* الأم، أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، مصورة عن طبعة بولاق ١٤٢١هـ.
* الأيام والليالي والشهور، أبوزكريا الفراء، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
* الترادف في اللغة، حاكم مالك الزيادي، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٠م.
* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) عبدالله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣م.
* تفسير النسائي، أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه صبري عبدالخالق الشافي، وسيد بن عباس الحليمي، الطبعة الأولى ١٩٩٥م-١٤١٠هـ.
* التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ- ١٩٩٠م.

* التقريب والإرشاد الصغير، القاضي أبوبكر محمد بن الحبيب الباقلاني، قدّم له وحققه وعلّق عليه د. عبدالحميد بن علي أبو زنيد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨م.
* جمهرة اللغة، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد، دار صادر، بدون تاريخ.
* الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق محمد على النجار،نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
* درس تاريخي في العربية المحكية، د. إبراهيم السامرائي، عالم الكتب، القاهرة.
* دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.
* دلالة الألفاظ وتطورها، د. مراد كامل، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣م.
* دور الكلمة في اللغة، ستيفين أولمان، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب ١٩٦٢م.
* رسالة الغفران، أبوالعلاء المعري، تقديم وشرح د. مفيد قميحة، دار مكتبة الهلال، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
* زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
* السنن الكبرى، أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبدالغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
* شرح القصائد العشر، أبو زكريا يحيى الخطيب التبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م.
* الصاحبي، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق الشيخ. السيد أحمد صقر، المكتبة السلفية.

* العربية لغة العلوم والتقنية، د. عبد الصبور شاهين، دار الاعتصام، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
* علم الاجتماع اللغوي، د. السيد علي شتا، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٦م.
* علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.
* علم اللغة الاجتماعي، روك هدسون، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب ١٩٩٠م.
* علم النفس اللغوي، د. نوال محمد عطية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٢م.
* عون المعبود (شرح سنن أبي داود) أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ ابن القيم الجوزية، ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، مؤسسة قرطبة، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.
* العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق.
* الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية.
* فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، الطبعة الرابعة ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦م.
* الكتاب، سيبويه، تحقيق الشيخ عبد السلام هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.
* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
* لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، دار صادر، بيروت.

* لغتنا والحياة، د. عائشة عبد الرحمن، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٩م.
* اللغة والحضارة، د. إبراهيم السامرائي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
* اللغة والمجتمع، د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر١٩٧١م.
* متخيَّر الألفاظ، ابن فارس، حققه وقدم له هلال ناجي، نشرة المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط، المغرب.
* المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق إبراهيم الإبياري، معهد إحياء المخطوطات بمصر.
* مختصر التحرير في أصول الفقه. ابن النجار الحنبلي، ضبط وتصحيح د. محمد مصطفى محمد رمضان، دار الزاحم، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
* المزهر في علوم اللغة،جلال الدين السيوطي، شرح محمد جاد المولى، دار إحياء الكتب العربية.
* المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
* مستويات العربية المعاصرة في مصر (بحث في علاقة اللغة بالحضارة)، د. السعيد محمد بدوي، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
* المصباح المنير(في غريب الشرح الكبير للرافعي)، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المطبعة الأميرية، الطبعة السادسة ١٩٢٥م.
* معالم السنن (شرح سنن الإمام أبي داود)، أبو سليمان الخطابي، المكتبة العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ-١٩٨١م.
* المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

* معجم متن اللغة، الأستاذ أحمد رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٨هـ-١٩٦٠م.
* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي، مكتبة بغداد ١٩٨٧م.
* معجم المناهي اللفظية ويليه فوائد في الألفاظ، بكر بن عبدالله أبوزيد، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٩م، دار العاصمة.
* المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثالثة، مطابع الهيئة العامة، ١٩٨٥م.
* المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه وراجعه محمد خليل عيتاني، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
* المنصف، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق الأستاذين إبراهيم مصطفى، وعبدالله أمين، مكتبة الحلبي ١٩٥٤م.

ثانيًا: الدوريّات والمجلات:

* مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٠٧- السنة ٢٩- ١٤١٨/١٤١٩هـ.
* مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء (٢٢)، مطابع دار الكتب المصرية، سنة ١٩٦٧م.
* مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء (٢٧)، فبراير ١٩٧١م، مطابع دار الكتب المصرية.
* مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء (٥١)، مايو ١٩٨٣م، مطابع دار الكتب المصرية.
* مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء (٧١)، جمادى الأولى ١٤١٣هـ - نوفمبر ١٩٩٢م، مطابع الهيئة العامة.